روضة الحكايات!!

(٧)

من ثمارهم تعرِفُونَهُم..!!

الدكتور

محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

رحلة إلىٰ بُصرىٰ الشام

من بابِ الترويحِ عن النفسِ ، واكتشافِ المَجْهولِ ، وزيارةِ الأماكن الأثريةِ ، أعلنتْ إدارةُ معهدِ تحفيظِ القرآنِ الكريم عن قيامِها برِحْلَةٍ إلىٰ مِنْطَقَة بُصرى الشام ، والتسجيلِ حالياً عند مديرِ المعهد .

وأقبل الشبابُ علىٰ التسجيلِ ، ولم يَمْضِ يومان علىٰ ذلك حتىٰ أُغْلِقَ بابُ التسجيلِ ، خاصة عندما عَلِمَ الناسُ أنّ هناكَ نُخْبَةً منَ الأساتذةِ والمثقّفين والعلماءِ سيذهبون في تلك الرحلة...

و.. حُدّدَ الموعدُ ومكانُ اللقاء.. ، وبالفعل غَصَّ المسجد بالشبابِ ـ في مختلف أعمارهم ـ لأداءِ

صَلاةِ الفَجْرِ ، وكان كلُّ واحدٍ منهم قد حَمَلَ معه أغراضَه..

ونظر شيخُ المَسجدِ إلىٰ ذلك ، وقال مُعَلِّقاً : ما لي أراكُم راحلين.. ومعكم أغراضٌ كثيرة؟ وكأنكم ذاهبون إلىٰ حجِّ بيتِ اللهِ الحرام؟!

وكان جَوابُ أستاذِ اللغةِ العربية : إنْ شاء الله نَكُنْ برفقتك هذا العام لحجِّ بيتِ الله الحرامِ ، وزيارةِ مسجد الرسولِ ﷺ .

وبعدَ أداءِ الصلاة ، صَعِدَ الشبابُ إلىٰ الحافلة.. وجلس كلُّ واحدٍ علىٰ كرسيٍّ من كراسي الحافلة.. ، ولما حانَت الساعةُ السادسةُ تَحَرَّكَتِ الحافلةُ باتجاهِ الجنوب...

وبعد مُغادَرةِ دمشق.. ، وقفَ مديرُ المعهدِ في أولِ الحافلة ، وتَحَدَّثَ عن الأهدافِ التاريخيةِ والسياحيةِ والترفيهيةِ للرِّحْلَةِ.. ، ثم تَرَكَ الكلامَ

لأستاذِ التاريخِ وبعد أن ألقىٰ عليهم السلامَ قال : نحن اليومَ سنُحقِّقُ في هذهِ الرحلةِ هدفين :

الأول ـ أن نَكْسِرَ روتينَ الحياةِ ورَتابتَها ، وأن نُرَوِّحَ عن أنفسِنا قليلاً ، وأن نَسْتَمْتِعَ بمناظِرِ الطبيعةِ الخَلابةِ والجَميلةِ...

والثاني ـ أن نَزورَ التاريخَ ، لنَعيشَ فترة من فتراتِه الماضيةِ ، وذلك من خلالِ الوقوفِ طويلاً في مدينةٍ أثريةٍ ما زالتْ آثارُها قائمةً حتى يومِنا هذا ، وهي تعود إلىٰ ما قَبْلَ الإسلامِ ، ولعلَّ من فوائدِ زيارةِ الأماكنِ الأثريةِ تَذَكُّرَ ما كان للأقوامِ الماضية ، والاعتبارَ بما حَدَثَ لهم ، والتفكّر في عظمةِ الخالقِ وعَظيمِ خلقته و...

.. وراحَ الأستاذُ يتحدَّثُ عن الذين شَيَّدوا مدينةَ بُصْرىٰ وتفنّنوا في عمارتِها وبنائِها ، وتَحدَّثَ أيضاً عن الأقوامِ التي تَعاقَبَتْ عليها ، وذَكَّرَ الشبابَ

أنّ البَقاءَ والخُلودَ لله وَحْدَه ،.. ثم طَلَبَ من الشبابِ ألا يتركوا دقيقةً إلا استفادوا منها ، وألا يَخْجَلوا إذا لم يَعْرِفوا ، فليسألوا أساتذتَهُم ومديرهم و.. ، فتلك فُرْصَةٌ ذهبيةٌ قد لا تتكررّ إلا بَعْدَ حين...

ولم يُحِسَّ الشبابُ بطولِ الطَّريقِ ، وذلك لاستمتاعِهِمْ بما ألقاه عليهمْ أستاذُ التاريخِ من معلوماتٍ قيّمةٍ ومفيدة ، وفجأة بَرَزَتْ أمامَهم لائحةٌ كُتِبَ عليها (أهلاً بكم في محافظة درعا)... ، واستشار المديرُ الأساتذةَ والطلابَ في أسبقيةِ الذهاب إلىٰ شلالاتِ المياه في (مُزَيْرِيبَ) و(زَيزونَ) أم في الذهابِ إلىٰ مدينة بُصْرىٰ التاريخية؟!

وكان شِبْهُ الإجماع علىٰ الذهاب إلىٰ الشلالات أولاً ، ثم الذهابِ إلىٰ بُصْرىٰ ثانياً . وهذا ما حَدَثَ ،... وقُبيلَ العصرِ وَصَلَتِ الحافلةُ إلىٰ مَشارِفِ مدينة بُصْرىٰ الشام ، ولما توقَّفت نَزَلَ

الركابُ إلىٰ الأرض.. وبَدَتْ علاماتُ التعجُّبِ علىٰ الوجوه : ما هذه الأعمدةُ الحجرية العظيمة..؟ ما هذا المدرَّجُ التاريخي العظيم؟ ما هذه القلعةُ الصامدة؟ كيف بنىٰ أولئكم الناسُ تلكَ المدينةَ علىٰ هذا الطّرازِ المعمارِيِّ الرائع..؟!

وسارَ الطلابُ برفقة أستاذِ التاريخ ، وكلُّهم آذانٌ صاغية وهو يُحَدِّثُهُمْ عن عَظمةِ تلكم الأقوامِ.. وعن الأماكِنِ الأثرية.. والفتحِ الإسلامي للمدينة.. وعن وعن.. ، ولما وصلوا إلىٰ الأطرافِ الشرقية للمدينةِ ، دخلوا إلىٰ داخلِ بناءٍ حجري ، حيث الغرفُ الحجريةُ عن اليمين ، وأخرىٰ عن اليسار ، و.. وراح الأستاذُ يحدّثهم عن تاريخ هذا المكانِ.. ودورِه في تَخْريجِ المتعلمينَ و.. خاصة في علومِ القرآنِ والسنة.. ثم قال لهم : إنّ هذا المكان الذي نقفُ داخلَه هو مدرسةُ (الحافظ ابن كثير الدمشقي) رحمه الله تعالىٰ..

و... لما آذنَتِ الشمسُ بالمَغيبِ ، عاد الجميعُ إلىٰ دمشق ، وذلك بعد مُضْيِّ نهارٍ حافلٍ بالسرورِ والفوائدِ والتَّرويحِ عن النفوس...

* * *

فَمَنْ هو ابن كثير الدمشقي؟!

وفي صبيحةِ اليومِ الثاني ، وبينما كان (نعمان) يُحدِّثُ عائلتَه عن تِلْكُمُ الرحلةِ الممتعة ، فجأة قَفَزَ إلىٰ ذهنِه فكرةٌ مَفادُها : لماذا لا أذهبُ إلىٰ المَكتبةِ فأكتبَ ترجمةً عن حياة (الحافظ ابن كثير) وألقيَها محاضرةً في المعهد؟!

ولما عرض علىٰ والدتِه تلكم الفكرةَ ، لاقىٰ ترحيباً وتشجيعاً جعلَه يحملُ أوراقَه وأقلامَه ويُغادرُ فوراً .

... وبين المجلّدات والمَراجِع استغرقَ (نعمان).. وهو يقرأ تارةً.. ويكتب أخرىٰ ، حتىٰ تَكوّن لديه هذا الملخَّصُ المُفيدُ :

في قريةٍ صغيرة تُدعىٰ (مَجْدَل القرية) قُرب بُصرىٰ ، وفي سنة (٧٠١هـ) وُلد الحافظ ابنُ كثير ، حيث كانت عائلتُه عائلةَ علمٍ وخطابة.. ، فوالدُه مثلاً كان مهتماً بفقه أبي حنيفة ، وعلومِ العربية ، وكان يَميلُ إلىٰ شِعرِ المدح والمَراثي ، ثم تأثّرَ بالإمام النووي ، فَتَمَذْهَبَ بالمذْهبِ الشافعي ، وعُيِّنَ خطيباً ومدرّساً .

ولما مات والدُه ـ وكان ابنُ كثيرٍ صغيراً ـ اهتمَّ به أخوه الأكبر (عبد الوهاب) وشَجَّعهُ علىٰ متابعةِ العلومِ الشرعية ، وقدَّمَ له الكثيرَ من المساعداتِ الماديةِ وما إلىٰ ذلك ، وانكبَّ ابنُ كثيرٍ علىٰ طلبِ العلمِ ، وذلك بمجالسةِ حَلَقاتِ أهلِ العلمِ والاستماع إليهم ، ولما بلغ العاشرةَ من عُمُرِه أَتَمَّ حِفْظَ القرآنِ الكريم ، ثم عَكَفَ علىٰ تَعَلُّمِ القراءات ، ثم اهتمَّ بعلومِ اللغة العربية ، وخاصة علم النحو .

وفي دمشق حَفِظَ ابنُ كثير كثيراً من كتب الفقه والأصول والحديث الشريف ، من ذلك مثلاً كتاب (التنبيه) لأبي إسحاق الشيرازي .

لكنَّ أكثرَ من تأثّر بهم (ابن كثير) هو : العلامة ابن تيمية (ت : ٧٢٨هـ) ، بل افتُتِنَ به ، لذلك كان يقولُ عنه (شيخُنا العلامة) ، ويبدو واضحاً مدىٰ تأثُّره به في مجالات الالتزامِ الشديدِ بالأصول ، ونَبْذِ الخُرافاتِ والشَّطَحاتِ وما إلىٰ ذلك .

كذلك فقد تأثّرَ بالعلامَةِ الكبير (ابنِ عساكر : ت٧٢٣هـ) وكان يقول عنه : (شيخُنا الجليل المُسْنِدُ الرحّالة)...

وقد أَثْمَرَ ذلك ـ الانكبابُ علىٰ التعلّمِ والتحصيل ـ ثماراً يانعةً ، حيث أَصبحَ (ابن كثير) أحدَ الرموزِ الأَعْلامِ .

لذلك أثنىٰ عليه العلماءُ والدّارسون ، من ذلك قولُ شيخِه الذهبيِّ فيه : (الإمام الفقيهُ المفتي ، المُحَدِّثُ الأوحَدُ البارع ، ذو الفضائل ، يدري الفقه ويفهمُ العربية والأصول ويَحفظُ جملةً صالحةً من المتون والتفسير والرجال وأحوالهم ، سمع مني ، وله حِفْظٌ ومعرفة..) .

وقال عنه المحدّث والمؤرّخ (بدر الدين العيني) : (... وكان قدوةَ العلماء والحفّاظِ ، وعُمْدَةَ أهلِ المَعاني والألفاظ ، سَمِعَ وجَمَعَ وصنَّف ، ودرّس وحدّث وألّف ، وكان له اطّلاع عظيمٌ في الحديثِ والتفسيرِ والتاريخِ ، واشتهر بالضَّبْطِ والتحريرِ ، وانتهىٰ إليه علمُ التاريخِ والحديثِ والتفسير..) .

* * *

من ثمارِهم تَعرفونَهُم!!

وتابع (نعمان) الحكاية قائلاً :

ولشدةِ وَرَعِ (ابن كثير) وإخلاصِه شاء الله سبحانه أن يكون له مركزٌ مرموقٌ فكان الناس يُهْرَعون إلىٰ دروسِه ، ويتناقلون ما يَكْتُبُ ، ويستشهدون بأقوالِه ، ولذلك أُوكلتْ إليه مهمةُ التدريسِ بالمدرسةِ النجيبية ، ثم بالمدرسةِ الفاضليةِ ، ثم تولّىٰ مشيخةَ دار الحديث الشهيرة ، فأصبحَ سَنَداً ومَرْجِعاً في كثيرٍ من العلوم ، ثم تولّىٰ مشيخةَ المدرسة الصالحية ، ثم دار القرآن والحديث التنكزية ، إضافةً إلىٰ دروسِه في التفسير ، وذلك في أكثرَ من مدرسةٍ ومسجدٍ ، وخاصةً في الجامع الأموي .

ومما يدلّ علىٰ مكانتِه العلميةِ أنه اختيرَ رئيساً للِجانِ الامتحانِ التي كانت تُعْقَدُ للطلابِ والمدرّسين .

ولذلك ذُكِرَ من تلامذته الكثيرُ ، وعلىٰ رأسِهِم : المَقْريزي ، وابنُ الجَزَري ، وابنُ حَجَر العَسْقلاني ، وغيرهم..

وأما مؤلّفاته ، فهي كثيرةٌ ومفيدةٌ ، ويَغْلُبُ عليها محاوِرُ ثلاثةٌ ، هي : القرآن وعلومُه ، ومجالاتُ السنةِ النبويةِ ، ومجالُ التاريخِ والآثارِ... ، وتمتازُ بالوضوحِ والبساطةِ ، والبُعدِ عن الخرافاتِ ، ومنْ أهمِّها :

(تفسيرُ القرآن العظيم) و(فضائلُ القرآن) ، وموسوعتُه التاريخيةُ القيِّمةُ ، والتي تُعَدُّ من أَنْفَسِ ما كُتِبَ في التاريخ ، حيث احتوتْ علىٰ التاريخِ القديمِ ، إضافةً إلىٰ فتراتٍ كثيرةٍ من العَهْدِ

الإسلامي ، تبدأ من العَهْدِ المَكِّي وتمتدّ علىٰ مدىٰ سبعةِ قرون!!

وهي (البداية والنهاية) والتي تقعُ في أكثرَ من اثني عشرَ مجلّداً .

إضافة إلىٰ كتبه (فصول في سيرة الرسول ﷺ) و(سيرة عمر بن عبد العزيز) و(اختصار علوم الحديث لابن الصلاح) و(الاجتهاد في طلب الجهاد) .

لكنَّ الرجلَ رَحِمَهُ اللهُ قال وهو عاكفٌ علىٰ أحد مصنّفاته : (لا زِلْتُ أكتبُ فيه والسراجُ يَنوصُ ، حتىٰ ذَهَبَ بصري معه ، ولعلَّ اللهَ يُقيّضُ له من يُكْمِلُه ـ أي كتابَه المَسانيد ـ)!!!

* * *

في ذمّة الله سبحانه

وبعد حياة حافلةٍ بالجِدّ والنشاط ، والعِلمِ والتعلّم ، والتدريسِ والخطابةِ ، والتصنيفِ أَسْلَمَ الرُّوحَ إلى خالِقِها ، وكان ذلك في سنة (٧٧٤هـ) ، ودُفِنَ قربَ قبرِ شيخِه ابنِ تيميةَ بدمشق ، فرَحِمَهُ اللهُ رحمة واسعة ، ونفعَنا بعلومه ، آمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *